

المحاضرة الثانية

علم النفس الاجتماعي وعلاقته بالعلوم ذات الصلة

تمهيد:

يتبين من خلال تسميته، أن علم النفس الاجتماعي في علاقة مع الظواهر النفسية الداخلية ومع مختلف الظواهر الاجتماعية، لذلك لا شك أن تطور هذا العلم وتوظيفه سيكون في علاقة وطيدة مع بقية العلوم النفسية والاجتماعية كما سنرى في هذه المحاضرة.

1. علم النفس الاجتماعي وعلم النفس:

ينتمي علم النفس الاجتماعي إلى تشكيلة من التخصصات الفرعية (نظرية كانت أم تطبيقية) لعلم النفس العام. فبالرغم من أن علم النفس الاجتماعي يهتم بالفرد (كما هو الشأن مع علم النفس العام) فإنه يختلف عن هذا الأخير في نظريته لسلوك هذا الفرد.

يهتم المختصون في علم النفس العام بالكيفية التي يدرك بها الفرد موضوعا ما كما يبينه المخطط التالي:

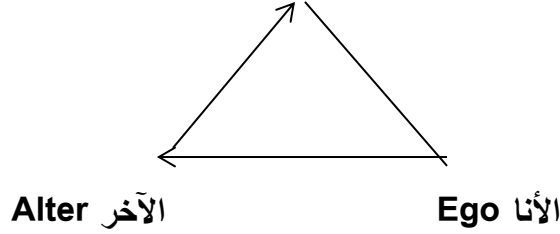
الفرد (العضوية، الأنا ego) le sujet individuel ← الموضوع (المثير، المحيط)

حيث يضع النفساني «الأنا l'égo» أو الفرد أو العضوية من جهة، ويضع «الموضوع l'objet» أو المثير أو المحيط من جهة أخرى، وهكذا يعتبر الفرد دفتر استجابات لمثير معين ($R \rightarrow S$). فإذا درسنا كيفية إدراك فرد ما لوردة رآها عندما كان جالسا في حديقة عمومية، فسنتكشف كيف تلتقط العين الوردية فتعكس مقلوبة في شبكية العين، ثم ترسل سيالة عصبية عن طريق العصب البصري إلى الفص القفوي في المخ والمسؤول عن البصر، أين ستتم معالجة الصورة من خلال التعرف على فئتها واسمها ورائحتها واستعمالاتها إن وجدت ليخرج في النهاية بقرار يخص التعامل مع هذه الوردية وهو ما يسمى إدراكا.

أما في علم النفس الاجتماعي فيستند أصحابه على النظرة البسيكو-سوسولوجية التي تترجم بقراءة ثلاثية للأفعال والعلاقات، حيث يدرس إدراك الفرد للموضوع من خلال تأثره بالآخر (الشخص الاجتماعي):

الموضوع Objet

(الفيزيقي، الاجتماعي، الخيالي أو الواقعي)



المخطط 01: يوضح النظرة البسيكو-سوسولوجية

بالرغم من اشتغال التحليل النفسي الفرويدي على الفرد إلا أنه أدرك مبكرا أهمية الحياة الاجتماعية لهذا الأخير وتأثيرها على أنه الأعلى، ولذلك أكد فرويد أنه لا يمكننا أن نتحدث عن علم النفس المرضي دون أن نتحدث عن علم النفس الاجتماعي، فالفرد لا يمكن فهمه من دون الأخذ بالحسبان حياته الاجتماعية:

«إن التباين الذي يبدو للوهلة الأولى كبيرا بين علم النفس الفردي وعلم النفس الاجتماعي أو علم النفس الجماهير سيفقد من شدته عندما نتمعن أكثر (...) فإذا نظرنا في الحياة النفسية لفرد مأخوذ معزولا، فسنجد أن الآخر يتدخل بشكل منتظم باعتباره نموذجا، سندا ومنافسا، وهكذا يكون علم النفس الفردي أيضا وبشكل مبرر وبالأساس علم نفس اجتماعي بمعناه العام».

لقد اعتبر التحليل النفسي إذن أن الليبيدو الخاضع للتجارب الطفولية خاضع في نفس الوقت لطبيعة العلاقات القائمة بين الأطفال وأولياءهم.

2. علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع:

ترجع علاقة علم النفس الاجتماعي بعلم الاجتماع لبداياته كموضوع تفكير وبحث علم اجتماعي بامتياز. حيث تحدث **أوجست كانت Auguste Comte** (فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي) عن الإنسان باعتباره مشكلا من طرف المجتمع الذي يعيش فيه (Fischer, 2005)، وسعى **مارسال موس Marcel Mauss** (علم اجتماع فرنسي) من خلال رسالته التي وجهها في العاشر من جانفي 1924 إلى جمعية علم النفس الفرنسية، بعنوان: "العلاقات الواقعية والعلمية بين علم النفس وعلم الاجتماع"، إلى تبيان الموضوعات المشتركة بين العلمين؛ أي مجموعة من الأحداث الاجتماعية التي لا يمكن دراستها إلا بتطبيق المنهج السيكلوجي تارة

والمنهج الاجتماعي تارة أخرى. فقد بدأ من الواضح أن علماء الاجتماع قد واجهوا ظواهر لا يمكن دراستها من الجانب الاجتماعي فقط، حيث سعى دوركايم **Durkheim** (عالم اجتماع فرنسي) لتحليل الوظائف النفسية للجماعة وقدم بذلك السياق النظري الذي يندرج فيه حقل ديناميكية الجماعة، كما اجتهد غابريال **Gabriel Tarde** (عالم اجتماع وأحد رواد علم النفس الاجتماعي الفرنسي فيما بعد) لإقامة علم اجتماع لا يغفل أياً من الآليات البسيكولوجية الملاحظة في وضعيات تبادل العلاقات الاجتماعية (باساغانا، 1983).

لقد ساهمت هذه التفكيريات والأبحاث الأولية لهؤلاء المفكرين ومفكرين اجتماعيين آخرين (عالم الاجتماع والفيلسوف الأمريكي جورج ميد **George Mead**، الطبيب وعالم الاجتماع الفرنسي وأحد رواد علم النفس الاجتماعي الفرنسي جوستاف لوبون **Gustave Le Bon**) في التحضير لولادة علم النفس الاجتماعي ولكنها حددت في نفس الوقت المواضيع التي تناولها هذا الأخير لسنوات عديدة: سيكولوجية الجماعة الصغيرة، ديناميكيات الجماعة والمجتمع، الرأي العام والإشاعات، العلاقات الإنسانية داخل المؤسسة، ... (الزعبي، 2013).

لطالما أشار المهتمون بعلم النفس الاجتماعي إلى ضرورة تحديد الحدود الفاصلة بين موضوع هذا الأخير وموضوع علم الاجتماع وموضوع علم النفس، حيث ظهر في و. م. أ (1951) مؤلف بعنوان "علم النفس الاجتماعي في مفترق الطرق *Social psychology at the cross-road*" يستنكر استمرار نظرتين اختزالتين لهذا العلم. الأولى ذات طبيعة فردانية *de nature individualiste* والأخرى ذات طبيعة سوسيو-ثقافية (Maisonnewe). لقد أشار موسكوفيسي (1984) إلى النظرة الأولى من خلال حديثه عن اختزال الظواهر النفس-اجتماعية إلى ظواهر بسيكولوجية والظواهر الاجتماعية إلى ظواهر فردية (Moscovici, 1984)، في حين أشار باحثون آخرون إلى أن الإسراف في الاعتماد على علم الاجتماع يحيد بالمختص في علم النفس الاجتماعي عن موضوعه الحقيقي ويجعله يهتم بالجماعة أكثر من اهتمامه بالفرد في تفاعله الاجتماعي (السيد، عبد الرحمان، 1999).

لقد سبقت أفكار مقدمة من قبل دوركايم وطارد **Tarde** حديث موسكوفيسي عن وجود نظرتين مختلفتين لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي لمواضيع مشتركة بينهما (الجماعة الاجتماعية، المجتمع، ...)، وقد بينت تلك الأفكار الحاجة الملحة في حينها، والتي ما تزال قائمة إلى اليوم، إلى التمييز بين علمين يسعى أحدهما إلى إثبات نفسه كعلم جديد في ميدان العلوم الاجتماعية.

رأى طارد أن الحياة الاجتماعية تركز على تشكيلة من الإختراعات التي تضمن تقدمها وتقليدات تؤسس لاستقرارها، وهذا ينطبق على المؤسسات، التنظيمات أو الآراء. لكنه اعتبر أن الفرد هو وحده الحقيقي، فبدونه لا يكون المجتمع سوى تجريد، كما رأى في علم النفس الاجتماعي علم نفس بيني une interpsychologie. أما دوركايم فقد اتفق معه في نظريته للوقائع الاجتماعية les faits sociaux باعتبارها ذات طبيعة عقلية ولكنها عقلية جماعية un mental social لا يمكن اختزالها في الجهاز النفسي الفردي وهي متعلقة بعلم جديد هو علم الاجتماع، يتوجب أن يكون له منهج دقيق «وبالعالم الوقائع الاجتماعية كأشياء».

لقد حدث حينها جدال حاد بين طارد ودوركايم لإثبات أيهما أسبق، الفردي l'individu أم الاجتماعي le social، وهو مصدر لصراع ضمني مازال قائما إلى اليوم بين النفسانية le psychologisme والاجتماعية le sociologisme ويتخذ طابعا عقائديا ومُختزلا في الكثير من الأحيان (Maisonnette).

يستند علم الاجتماع في دراسته للظواهر الاجتماعية إلى قراءة شبيهة بتلك التي يستند إليها علم النفس، مع اختلاف في الشخص الذي يصبح جماعيا un sujet collectif (شخص جماعي متباين بحسب معايير اقتصادية أو تاريخية)؛ أي مجموعة une collectivité (جماعة، طبقة اجتماعية، دولة) بدل فرد. حيث نأخذ بعين الاعتبار العديد من الأشخاص الذين يعيشون معا ويتغيرون ويتفاوضون ويتقاسمون نفس النظرة للعالم. أما الموضوع فيحمل قيمة اجتماعية أيضا، فهو يمثل اهتماما معنا un intérêt أو مؤسسة، كما أنه مشكل أحيانا من أشخاص آخرين، من جماعات أخرى، تشكل ما نسميه محيطا بشريا:

الشخص الجماعي le sujet collectif ← موضوع يختلف بين الاجتماعي وغير الاجتماعي

تسعى هذه النظرة إلى معرفة كيف تسلك فئات الأفراد المختلفة في المجتمع وتعيد إنتاج الهرمية الموجودة، ويتقاسم هؤلاء الأفراد الثروات أو يمارسون سلطاتهم، كما تصبوا إلى معرفة كيف يتحول فعل كل فرد له مصالحه (اهتماماته) وأهدافه الخاصة إلى فعل جماعي.

أما النظرة البسيكو-سوسيولوجية كما رأينا أعلاه فتترجم بقراءة ثلاثية للوقائع والعلاقات، وتكمن خصوصيتها في كونها تستبدل العلاقة بين طرفين: شخص وموضوع، الموروثة من الفلسفة الكلاسيكية، بعلاقة بين ثلاثة أطراف: شخص فردي un sujet individuel، شخص جماعي un sujet collectif وموضوع un objet.

3. علم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا:

في حين تهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بدراسة أنماط الثقافة السائدة لدى المجتمعات البدائية والحديثة، يهتم علم النفس الاجتماعي بكيفية تأثر الفرد بثقافة الجماعة التي ينتمي إليها (التنشئة الاجتماعية) أو جماعات أخرى (الجماعات المرجعية).

تستخدم الأنثروبولوجيا الثقافية والعادات كمفاهيم لفهم أنماط التنظيم الاجتماعي، بينما يحل علم النفس الاجتماعي العمليات التي تكمن وراء تلك المفاهيم. فهو يحدد كيف تنشأ العادات وكيف تنتقل من جيل إلى جيل (Brown, 1965).

خلاصة:

بالإضافة إلى هذه التخصصات، توظف نظريات علم النفس الاجتماعي في الكثير من الميادين؛ في الاقتصاد، من خلال دراسة سلوك المستهلك والاستناد على النظريات البسيكو سوسولوجية عند بناء مختلف الاستراتيجيات التسويقية. في الرياضة؛ من خلال البحث عن أفضل الطرق لزيادة دافعية الرياضي وتعزيز تماسك الفريق الرياضي وتحسين أدائه. في ميدان الصحة؛ من خلال دراسة التصورات الاجتماعية والمعتقدات الصحية لدى الناس العاديين ومحاولة فهم سلوكياتهم غير الصحية. وهكذا نجد أن لهذا العلم علاقة مع كل التخصصات المعنية بالجماعات وسلوك الأفراد داخلها.